التحالف المغولي الفرنجي ضد دولة المماليك البحرية

د. فوزي مصطفى*

الملخص

تناول هذا البحث الحديث عن تحالفات المغول والفرنج ضد مصر وبلاد الشام التي كانت تسيطر عليها دولة المماليك؛ وذلك في القرنين السابع والثامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، وخلال حكم أربعة سلاطين من سلاطين دولة المماليك: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، الناصر محمد بن قلاوون. وقد أظهرت هذه التحالفات الأهداف المشتركة بين الطرفين المغولي والفرنجي، وسعيهم الحثيث لتحقيقها. واتصفت هذه التحالفات بالجدية والاستمرارية، إذ شملت معظم مدة حكم دولة المماليك البحرية.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

Alliances between the Mongols and the Franks Against Mamluk Naval State

Dr. Fawzi Mustafa[**]

Summary

This research deals with the alliances between the Mongols and the Franks against Egypt and the Levant, which was controlled by the Mamluk state in the 7th and 8th/AD 13th/AD 14th centuries. During the rule of four dynasties of the Mamluk sultans: Al-Zaher Baybars, Al-Mansur Qalawun, Nasser Mohammed bin Qalawun. These alliances have shown the common objectives of the Mongols and the Franks, and their striving to achieve them. These alliances were characterized by seriousness and continuity, including most of the Mamluk naval rule.

[**] Damascus University, Faculty of Arts and Humanities, Department of History.

- **مقدمة:**

كـان للمغـول أهـدافٌ تلاقـت مـع أهـداف الفـرنج فـي القـرنين السـابع والثـامن الهجريين/الثالث عشر والرابع عشر الميلاديين، ومن هذه الأهداف:

- السيطرة على بلاد الشام ومصر.
- السيطرة على بيت المقدس.
- تحقيق المصالح الاقتصادية الكبيرة من خلال مصر والشام.

وهذا أدى إلى التواصل بين الطرفين مدة طويلة من الزمن ناشدين تشكيل أحلاف متتالية زمنيًا ضد الدولة التي كانت تسيطر على مصر وبلاد الشام وهي دولة المماليك، لذلك كثرت المراسلات والسفارات بين الطرفين.

وبذل الطرفان المغولي والفرنجي كل ما بوسعهما من أجل تحقيق تعاون مشترك وذي فاعلية لتحقيق مصالحهما المشتركة ومن أجل تجاوز العائق الذي كان يحول دون تحقيق هذه الأهداف وهو دولة المماليك، ورد ذلك بوضوح لا يقبل الشك والتأويل على لسان الإيلخان غازان حين أرسل سنة 700هـ/1300م رسالة إلى البابا وأوروبة ذكر فيها بوضوح: (إن حرب المماليك هي هدفنا الوحيد)[1].

ويشير البحث مثلًا إلى طرابلس مثلًا التي كانت على شاطئ البحر المتوسط، وكيف كانت تُعدُّ من نيابات الثغور القريبة من البحرية الفرنجية، وكانت تمارس القرصنة والإغارة الدائمة، وكانت تتحالف مع المغول، وذلك قرابة 184 سنة، إلى أن حررها السلطان المنصور قلاوون عام 688 هـ/1289م[2].

ويشير أيضًا سعيد عاشور إلى أن هذه الاتصالات بين المغول من ناحية والبابوية وأوروبة والفرنج من جهة ثانية استهدفت الإجهاز على البلدان العربية في الشرق الأدنى[3].

وقد شغلت هذه التحالفات المغولية الفرنجية مدة حكم عدد من سلاطين دولة المماليك في مصر والشام، كالظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد ابن قلاوون.

---

[1]- Andrew, J: The mongol world empire 1206 – 1370, London, variorum reprints, P: 562.

[2]– انظر: العمري، أحمد بن يحيى: التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م، ص: 235؛ القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط1، جـ4، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م، ص: 139–140؛ العلبي، أكرم: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1982م، ص: 33–34.

[3]– عاشور، سعيد: الظاهر بيبرس، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ص: 89.

وبدأت بوادر هذا التحالف منذ معركة عين جالوت (658هـ/1260م)، وتجلى ذلك بموقف بوهيمند السادس ملك أنطاكية وهيثوم ملك الأرمن اللذين كانا يشاركان في عمليات الجيش المغولي على الأراضي الإسلامية[1].

أولًا: التحالف المغولي الفرنجي ضد المماليك في عهد الظاهر بيبرس (658–676هـ/1260–1277م):

حفل عهد الظاهر بيبرس بكثير من محاولات التحالف الفرنجي المغولي، شغل ذلك مدة حكمه كلّها، ولكن الظاهر بيبرس استطاع إحباط معظم هذه التحالفات بالحنكة تارة وبالقوة تارة أخرى، والأسطر الآتية تبيّن ذلك.

1_ التحالفات المغولية الفرنجية وموقف بيبرس منها:

كثرت الرسائل المتبادلة بين الغرب الأوروبي وخانات المغول في هذه المدة، إذ كانت الرسل لا تنقطع بين الغرب اللاتيني والمغول.

ومن تلك الرسائل الرسائل التي كتبها إنوسنت الرابع وملك فرنسا لويس التاسع، أو الوثائق التي تحتوي على الرسائل التي وجهها الإيلخانات إلى الباباوات: غريغوري العاشر، هونوريوس الرابع، نيكولاس الرابع وبونيفاس الثامن، ولملك فرنسا فيليب.

أعقب ذلك خمسين عامًا من الاتصالات الدبلوماسية والمشاريع المشتركة بين المغول والغرب لتنظيم حملات ضد المماليك.

تُظهر هذه الرسائل كيف أن مغول فارس كانوا يسعون إلى إقامة علاقات مع الغرب اللاتيني بهدف تشكيل تحالف ضد سلطنة المماليك، وذلك بعد الهزائم التي لحقت بجيش المغول من قبل قوات المماليك في عين جالوت[2].

ومن هذه المراسلات رسالة فرسان الهيكل لملك إنكلترة يخبروه فيها عن استيلاء المغول على بغداد وإعدام الخليفة، وأنهم الآن يتقدمون داخل سورية، وأن المغول وضعوا في الخطوط الأمامية لجيوشهم الأسرى والنساء.

ومن هذه المراسلات مراسلات مغول فارس للإنكليز، مثل ما حدث في منتصف سنة 659هـ/1260م إذ أرسل المغول إلى الملك هنري الثالث.

---

[1]- جيرارد أوف مونتريل، الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ترجمة: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008م، ص: 42–43.

[2]-Denise Aigle, E: Hülegü, and Abaqa: Mongol Overtures or Christian Ventriloquism? BRILL, Inner Asia, Vol (7), No (2), 2005, Pp: 143-162.

كما تلقى هنري الثالث خطابات من أسقف بيت لحم، يخبره فيها بأن المغول صاروا بين حلب والقدس، وأن الأماكن المقدسة صارت في خطر.

وهنا دعا البابا إلى اجتماع المجلس العام في روما في عيد الفصح 660هـ/1261م، ووجه الرسائل إلى رئيس أساقفة كانتربري، وإلى الملك هنري الثالث، وغيرهما، لاتخاذ إجراءات أمام خطر المغول هذا.

وفي خريف سنة 660هـ/1261م، أرسل أسقف عكا مبعوثين إلى البابا في روما لمهاجمة دولة المماليك[1].

وقد كان الفرنج يستغلون دومًا فرصة سوء العلاقات بين المماليك والمغول، وبدورهم كان المغول يستعينون في أثناء هذه الخلافات بالفرنج، ففي عهد أباقا تواصلوا غير مرة مع البابا وملوك أوروبا.

فأرسل أربعة من البابوات إلى أباقا بالتعاطف معه، وهم: كليمنت الرابع وجريجوري العاشر ويوحنا السادس والعشرون، ونقولا الثالث.

فبادر أباقا سنة 665هـ/1266م وبعث برسالة إلى البابا كليمنت الرابع يبارك له فيها بالانتصار على أحد خصومه، ويعرض التعاون العسكري بين الطرفين ضد دولة المماليك[2].

ثم بعث البابا كليمنت الرابع رسالة سنة 666هـ/1267م إلى أباقا يبلغه فيها بحملة صليبية جديدة، توجهت بقيادة لويس التاسع إلى تونس، لكن العاصفة دمَّرت أسطول الصليبيين[3].

ثم بعث سنة 666هـ/1267م بعثة إلى البابا كليمنت الرابع يطلب فيها معاونة الفرنج له ضد المماليك، فقدَّم البابا كليمنت الرابع وحكام أوربا وعدًا لأباقا خان بدعمه في ذلك.

وفي السنة نفسها أرسل أباقا بعثة مغولية إلى جيمس الأول ملك أرغون للتحالف ضد دولة المماليك، وفعل ذلك سنة 669هـ/1270م مع لويس التاسع ملك فرنسا وسنة 670هـ/1271م مع إدوارد الأول ملك إنكلترة[4].

---

[1]- Paviot, J: England and the Mongols (c. 1260-1330), Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol (10), No (3), 2000, Pp: 305-318.

[2]- Andrew, J: The mongol world empire 1206–1370, Pp: 554–556.

[3]- Paviot: England and the Mongols (c. 1260-1330), Pp: 305-318.

[4]- Andrew: The mongol world empire, Pp: 554–556 .

إذًا راسل أبغا روما يعرض خدماته ضد المماليك، وذلك بين سنتي 664هـ/1266م – 666هـ/1268م، في وقت كان الغرب الأوروبي يستعد فيه للانتقام من سقوط أنطاكية، وكان لويس التاسع يجهز حملة صليبية جديدة ضد تونس[1].

ويظهر أن هذا الاتفاق النظري قد تحقق عمليًا ودخل حيز التطبيق؛ إذ جرى تنسيق سنة 668هـ/1269م بين جيمس الأول ملك أراغون وأبغا للهجوم على المماليك[2]، فهاجم مغول فارس الساجور في ربيع الأول 668هـ/تشرين الأول 1269م، ولكن تعذر وصول مساعدات جيمس الأول بسبب عاصفة بحرية[3].

ولما وصل إدوارد ولي عهد انكلترا عكا سنة 670هـ/1271م طالب بالهجوم على دولة المماليك، فأرسل أبغا القائد صمغار مع قوات الروم في زهاء عشرة آلاف فارس، فهاجموا عينتاب وحارم وبدؤوا يغيرون على البلاد الحلبية[4].

وفي 26 يناير 1275م/674هـ، أبلغ الغرب الإيلخانات أنه يُجهز لحملة صليبية[5].

ولكن قوة بيبرس وحنكته أحبطت هذه التحركات والتحالفات الفرنجية المغولية كلّها، ممَّا اضطر إدوارد الأول لعقد هدنة مع الظاهر بيبرس، وعاد إلى دياره[6].

2 _ محاولة المغول الصلح مع المماليك بعد إحباط التحالف مع الفرنج:

حاول المغول والسلاجقة الصلح مع المماليك، فأرسلوا سفارة سنة 670هـ/1271م إلى الظاهر بيبرس[7]، باسم صمغار قائد المغول المقيم في آسية الصغرى، ومعين الدين البروناه وزير السلطان السلجوقي في بلاد الروم، اللذين قدما نفسيهما وسطاء أبغا وبيبرس لتحقيق الصلح[8].

---

[1]– هلال، عادل: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، 1997م، ص: 112.

[2]- ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976م، ص: 362؛ رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، ج3، دار الثقافة، بيروت، 1968م، ص: 568/567.

[3]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 361؛ المقريزي، أحمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد مصطفى زيادة، ط2، ج1، ق2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م، ص: 584.

[4]-Howorth: A history of the Mongols. Part 3. P: 242-243.

وانظر: ابن عبد الظاهر: الروض، ص: 395؛ المحمد، أنس: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2014م، ص: 73–74.

[5]- Paviot: England and the Mongols (c. 1260-1330), Pp: 305-318.

[6]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 395–396. عادل هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 113.

[7]– كان يقيم وقتذاك في دمشق.

[8]– ابن شداد، عز الدين: تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، 1983م، ص: 34.

ويبدو أن شكوك المغول بوجود اتصالات سرية بين بيبرس ومعين الدين البروناه، قد أحبطت هذا الصلح، فضلًا عن اشتراط بيبرس أيضًا لقبول الصلح أن يُعيد أبغا له جميع أراضي المسلمين التي تحت يده[1].

ويشير البحث إلى ظهور محاولات بيزنطية لعقد الصلح بين مغول فارس والمماليك، دفع البيزنطيين إلى ذلك وجود عدو مشترك بين الطرفين وهم فرنجة الشام، فراسل الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس سنة 667هـ/1268م الظاهر بيبرس يعرض عليه مشروع صلح مع المغول، لكن بيبرس رد عليه بقوة بقوله: (أما أبغا فما له إلا السيف)[2].

ويشير البحث أيضًا إلى أن الملك الأرمني هيثوم الأول حاول أيضًا أن يكون وسيطًا للصلح بين المماليك والمغول، لكن محاولة الصلح هذه لم تنجح[3].

3 _ مجمع ليون:

تجلت قضية تحالف المغول مع الغرب ضد دولة المماليك بمجمع ليون (673–674هـ/1274–1275م) إذ دعا إلى عقده البابا جريجوري العاشر، وهو مجمع فرنجي شهده عدد كبير من أساقفة الشرق، يتصدرهم أسقف طرابلس، ومقدم الداوية وليم بوجيه.

وقد سعى البابا لإقناع أوربا بتنفيذ قرارات ذلك المجمع، فبادر ملك فرنسا فيليب الثالث إلى الإسهام في حملة صليبية بالتعاون مع رودلف هابسبرج، مقابل الحصول على وعد بأن يتوجه البابا في روما إمبراطورًا. وفي الوقت نفسه حاول البابا أن يهيئ الأرض المقدسة لقدوم الحملة الصليبية فأمر بإصلاح الحصون في الشرق وعمارتها، وإرسال أعداد كبيرة من العساكر المأجورة والمدربة تدريبًا عاليًا إلى الشرق.

وقد تلقى مبعوثو المغول إلى هذا المجمع ردودًا ودية من البابا والمجلس البابوي في تنسيق الجهود بين الطرفين ضد قلاوون ودولة المماليك.

وقد وصل وفد المغول إلى إنكلترا سنة 675هـ/1276م وسلَّموا ملكها إدوارد الأول رسالة من سيدهم أباقا[4].

---

[1]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 399–404؛ الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ في غزو المغول تاريخ الإيلخانيون أبناء هولاكو، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، محمد صادق نشأت، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، 1960م، ص: 65/2.

[2]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 335.

[3]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 339–342؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص: 574.

[4]– رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص: 582–593.

وقد أرسل أباقا إلى هذا المجمع تقريرًا، ذكر فيه: (إن هولاكو هو الذي بعث بأفضل ما عنده من مبعوثين إلى السيد البابا قدَّس الله سره، كما بعث إلى جميع الملوك والأمراء بهدف الوصول إلى تحالف دائم معهم)[1].

وخلال ذلك راسل أباقا ملك إنجلترا إدوارد الأول فيليب الثالث ملك فرنسا عارضًا عليهم التحالف ضد دولة المماليك ، بل أرسل إلى جيمس الثاني ملك أرغونة لإعداد حمله فرنجية ضد المماليك، وتم ذلك، لكن هذه الحملة أخفقت في الوصول إلى الشام ومصر.

وفي سنة 675هـ/1276م راسل أباقا البابا وملوك أوروبة محرضًا لهم على غزو الشرق، وفي سنة 676هـ/1277م أرسل البابا سفارة إلى أباقا وعده من خلالها بإرسال حملة ضد دولة المماليك[2].

بداية ظهر التحالف المغولي الفرنجي من خلال مهاجمة الفرنج لقاقون وعين تاب والروج وقسطون وأفاميا سنة 670هـ/1271م، للتخفيف على المغول من هجوم المماليك، لكن الظاهر بيبرس هزمهم[3].

وتم التحالف المغولي الفرنجي أيضًا من خلال أرمينية الصغرى التي ظلت مصدر خطر على بلاد الشام، فتحالفت مع الفرنج ومع المغول، وكان تعاون الأرمن مع المغول بسبب موقع بلادهم بين سلاجقة الروم والمماليك، فقدَّم هيثوم فروض الطاعة والولاء ووثَّق علاقته بهم واتصل مباشرة بخاقان المغول الأعظم كيوك خان في قراقورم مرسلًا له مختلف أنواع الهدايا، فأعفى كيوك خان بلاده وأديرته وكل رعاياه من الضرائب المغولية[4].

فكانت العلاقات المغولية الأرمينية قبل 707هـ/1307م متضافرة، وكان الأرمن منحازين لجانب المغول، وهذا ما يتضح من تسليم هيثوم لزوجة كياخسرو وابنته للمغول بعد هزيمة السلاجقة في معركة سنة 641هـ/1243.

وكان التحالف الأرمني المغولي يُعد دومًا هجومًا منسقًا ضد المماليك بالتنسيق مع البابا وقوى الغرب.

---

[1]- عاشور، سعيد: الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط1، جـ2، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963م، ص: 1112؛ بدر، مصطفى: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي، ص: 8 وما بعد؛ هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 117-281.

[2]- عاشور: الحركة الصليبية، جـ2، ص: 1112؛ بدر: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، ص: 8 وما بعد؛ هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص:281/117.

[3]-Howorth: history of mangols, P: 280.

[4]- اسكندر، فايز: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1980م، ص: 29. حومد، أحمد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ط1، 2002م، ص: 250.

وقد أدى التحالف الأرمني المغولي إلى خسائر مملوكية في الرجال والموارد، فقاموا بغزوات متسلسلة ضد المملكة الأرمنية[1].

ومنذ ذلك الوقت أصبح ملوك أرمينيا الصغرى تابعين للمغول ولاسيَّما مغول فارس، وصاروا يحرضونهم ضد جيرانهم العرب، بل اشتركوا بجيوشهم ضد المماليك.

فتعاون هيثوم الأول مع مغول فارس على الأصعدة كلّها، ووقف الأرمن إلى جانب هولاكو بحملته على بلاد الشام، ومن ثمَّ نجح المغول في توظيف التحالف مع دولة أرمينيا الصغرى التي أصبحت تابعة للمغول، وعُيِّنَ ملك أرمينيا مستشارًا لخاقان المغول في شؤون المشرق، وأُعْفِيَت الكنائس في الإمبراطورية المغولية من أنواع الضرائب كلّها[2].

4 _ موقف بيبرس من التحالف الفرنجي الأرمني المغولي:

كان اتصال الأوروبيين بإيلخانات المغول مبكرًا، وجرت المراسلات وتبادل الهدايا معهم، ودعوهم إلى الإحسان لرعاياهم، واستعدوهم على المماليك، وفي مرحلة دعوهم إلى الدخول في المسيحية[3].

فاتبع الصليبيون دور المرشدين لجيوش مغول فارس المغيرة على بلاد الشام، فكانت حروب بيبرس معهم ومع الأرمن في بلاد الشام مستمرة وطويلة وعنيفة، واستمرت بين 659 –669هـ/1261–1271م[4].

وعَقَد سنة 660هـ/1262م حلفًا دفاعيًا مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل باليولوجس، لعلمه أن الأمبرطورية البيزنطية كانت العدو اللدود للصليبيين في الشام.

وتحالف مع زعيم قبيلة مغول القفجاق بعد أن اشتدت عداوتهم لمغول فارس، فتحرك بيبرس بذكاء ضد مغول فارس عندما تحالف مع بركة خان زعيم القبيلة الذهبية، وذلك لمواجهة تحالف مغول فارس مع الأرمن والكرج وفرنجة أنطاكية، ولكسب شواطئ البحر

---

[1]- Stewart, A: The Assassination of King Hetum II, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol (15), No (1), 2005, Pp: 45-61.

[2]– العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م، ص: 161. الصياد، فؤاد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م، ص: 214.

[3]– عاشور، سعيد عبد الفتاح: الحركة الصليبية، جـ2، ص: 1098.

[4]– أبو عليان، عزمي محمد: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ط1، دار النفائس، الأردن، 1995م، ص: 27–28؛ عودات، أحمد؛ وبيضون، شحادة: الناطور، تاريخ المغول والمماليك، إربد، دار الكندي، 1990، ص: 100.

الأسود التي كانت تحت سيطرة خانات القبيلة الذهبية، فهي المصدر الأساسي للرقيق الذين شكَّلوا عماد الجيش المملوكي، مع العلم أيضًا أن بركة خان كان يعارض بشدة هجمات هولاكو على أراضي المسلمين. ومع العلم أيضًا أن العلاقات ساءت جدًا بين الطرفين لأن هولاكو حرم بركة خان من نصيبه من غنائم الحرب[1].

وهنا صار بيبرس يشجع بركة خان على قتال هولاكو ليشغله عن مهاجمة بلاد الشام وهذا ما حدث، فجنَّب بذلك بيبرس الشام من هجمات مغول فارس، مع أن هولاكو لم يصرف انتباهه عن مهاجمة الشام، إذ طلب إلى ملك أرمينية الصغرى في أثناء زيارته لهولاكو القيام بهجوم على حدود دولة المماليك، وكان ذلك، لكن المماليك هزموا الأرمن مرتين في بلاد الشام سنة 662هـ/1263م[2].

وليس هناك من دليل أكثر وضوحًا على مدى ما وصلت إليه العلاقات المملوكية – القفجاقية من تقارب ومودة من زواج الظاهر بيبرس من ابنة حسام الدين بركة خان بن دولة خان التتري[3].

إن سياسة بيبرس هذه أدت إلى تجنَّب قيام تحالف بين القوى المغولية الكبرى والغرب والأرمن ضد دولة المماليك الناشئة في مصر والشام، كما ضمن وجود شاغل لمغول فارس يمنعهم من توجيه كل قواهم وجهوهم ضد المسلمين وخاصة في بلاد الشام.

لذلك فإن حروب بيبرس لم تقتصر في ذلك الدور على الصليبيين في الشام ومغول فارس في العراق، وإنما امتدت إلى أرمينيا الصغرى فضلًا عن سلاجقة الروم بآسية الصغرى[4].

ثانيًا: التحالف المغولي الفرنجي في عهد المنصور قلاوون (678–689هـ/1279–1290م):

ظهر التحالف بين المغول والفرنج في عهد المنصور قلاوون في معركة حمص التي حدثت سنة 680هـ/1281م بين المماليك والمغول، والذي يعنينا من هذه المعركة قضية التحالف، إذ أشارت وثيقة فرنجية إلى رسالة محفوظة في مكتب حفظ السجلات

---

[1]– رشيد الدين: جامع التواريخ، ص: 332/1/2؛ شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: سهيل زكار، وخالد عيسى، ط1، دار حسان، دمشق، 1982م، ص: 52 وما بعد.

[2]– ابن عبد الظاهر: الروض الزاهر، ص: 139/89–140؛ المقريزي: السلوك، جـ1، ق2، ص: 465.

[3]– الحجي، حياة ناصر: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1981م، ص: 12.

[4]– عاشور: الظاهر بيبرس، ص: 92–93.

الملكية في بريطانية، ضمن مجموعة تعرف باسم (الرسائل الملكية)، والرسالة بعنوان: (أخبارًا من سورية)[1].

هذه الوثيقة هي رسالة من شخص اسمه (جوزيف دي كانسي) أحد فرسان الإسبتارية[2] المقيمين في عكا، كان معاصرًا للمعركة، وربما كان شاهدًا عليها، أرسلها إلى إدوارد الأول ملك انكلترا، ويتبيّن من نص الرسالة أن الملك عهد إليه بمهمة تزويده بالمعلومات عن الأحداث التي تجري في الأراضي المقدسة، وفي هذه الرسالة شيء من التعاطف مع المغول، لا محبة بهم، بل كراهية بالمماليك الذين أذاقوا الإسبتارية مرارة الهزيمة غير مرة.

تبيّن من خلال دراسة نص الرسالة أنه لم يكن هناك أية مشكلة عند الفرنجة في تقديم المساعدة أو الاشتراك في المعركة إلى جانب المغول، لو أن المغول طلبوا إليهم ذلك، أي لم يكن للهدنة التي عقدها السلطان معهم قبل أشهر أي قيمة، وكانت المشاركة الأرمنية والجورجية واضحة، فالرسالة تجعل لشجاعة ملك أرمينيا واستبساله الفضل الأكبر في كسره ميسرة المسلمين وهزيمتها، بل مطاردتها مع ملك جورجيا، وهذا ما لا تنكره المصادر الإسلامية، لكنها كلها تجمع على أن ميسرة التتار تلقت هزيمة منكرة من قبل ميمنة المماليك، وأن هذه الكسرة قصمت ظهر المغول وحسمت المعركة لصالح المسلمين، أمَّا دي كانسي صاحب هذه الرسالة فإنه يقول النقيض، وإنَّ ميمنة المسلمين تعرضت هي الأخرى لهزيمة، ولكنها لم تكن بالدرجة نفسها التي كانت عليها هزيمة الميسرة، وذلك بفضل شجاعة السلطان وصموده[3].

---

[1]– أشار الدكتور أنس المحمد إلى أن الأستاذ الدكتور سهيل زكار ترجمها ونشرها ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية. انظر: دي كانسي، جوزيف: أخبارًا من سورية، ترجمة: سهيل زكار، رسالة منشورة ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم يُنشر بعد، ص: 24/20؛ المحمد: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، ص: 101.

[2]– هي منظمة دينية عسكرية أُنشئت في بيت المقدس في القرن السادس الهجري/الثاني عشر الميلادي، وهي تسمية عربية محرفة عن لفظة (Hospitallers) أي فرسان المشفى، إذ أسسها بعض تجّار مدينة أمالفي كجمعية خيرية في بيمارستان قرب كنيسة القيامة في بيت المقدس للعناية بفقراء الحجاج الأوربيين، ثم دخل هؤلاء تحت النظام البندكتي المعروف في غرب أوربا، وصاروا يتبعون البابا في روما مباشرة، وعند وصول الصليبيين إلى بيت المقدس وحصاره، قدّم الإسبتارية لهم مساعدات مهمة، وانحرف عمل هذه المنظمة من أعمال الاعتناء بالمرضى الفقراء إلى أعمال إرهابية؛ انظر: سميث، جوناثان رايلي: الإسبتارية فرسان القدّيس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، تر: صبحي الجابي، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، 1984م، ص: 7.

[3]– المحمد: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، ص: 102.

وتُظهر هذه المعركة ذلك التعاطف والتحالف المغولي الصليبي، مثال ذلك ما ذكره المؤرخ شافع بن علي، إذ يقول: (في أثناء المعركة وقعت بطاقة في الجيش الإسلامي على جناح طائر مضمونها: إنه وصل الخبر من داخل طرابلس أن التتار سيَّروا جمعًا كبيرًا منهم إلى طرابلس ليكونوا من وراء جيش المماليك، ثم تبين أن جماعة من الفرنجة في حصن طرابلس لبسوا لباس التتار وخرجوا ليوهموا الناس أن التتار وصلوا إلى طرابلس)[1].

ثالثًا: التحالف المغولي الفرنجي في عهد الأشرف خليل (689–693هـ/1290–1293م):

كان أبناء ملوك المغول والقادة المغول يتوجسون خوفًا من قيام علاقات مع دولة المماليك، فلذلك ثاروا على أحمد تكودار وأزاحوه عن العرش، إذ أثار إسلامه البلاط المغولي، ووجدوا في ذلك خروجًا عن نظمهم وأعرافهم القبلية، في ظل طغيان الشامانية والبوذية على معظم العناصر المغولية، فتحالفوا مع أرغون بن أباقا وقتلوه، واستلم أرغون (683–690هـ/1284–1291م)، وكان على عداوة مشهورة مع الإسلام[(2)].

فعاصر الأشرف خليل الإيلخان أرغون الذي كان من المتعصبين للديانة البوذية.

ولما تولى أرغون السلطة بعد أحمد تكوادر قرَّب غير المسلمين، وأبعد المسلمين عن بلاطه وعن المراكز المهمة في الدولة، وبتأثير من وزيره اليهودي سعد الدولة أعلن أنه سيعمل على جعل مكة معبدًا وثنيًا.

اتصل أرغون بإدوارد الأول ملك إنجلترا مقترحًا عليه القيام بهجوم مشترك على دولة المماليك، ولكن الملك الإنجليزي اعتذر إليه بانشغاله بالحروب الاسكتلندية[3].

ويمكن القول: إنّه ومنذ سنة 684هـ/1285م بدأ أرغون يراسل الفرنج، فأرسل سفارة إلى البابا هونوريوس الرابع عارضًا عليه التعاون العسكري ضد دولة المماليك[4].

وفي سنة 686هـ/1287م أرسل سفارة برئاسة الراهب رابان سوما _أحد كبار رجال الكنيسة في آسية_ إلى البابا هونوريوس الرابع وإلى ملكي إنجلترة وفرنسا، فاطلع البابا الجديد نيقولا الرابع (بسبب وفاة البابا هونوريوس الرابع) على رسالة أرغون، ووافق على التعاون ضد

---

[1]– ابن علي، شافع الكاتب: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا، 1998م، ص: 73.

[2]– إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة: عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م، ص: 450. شبولر: العالم الإسلامي في العصر المغولي، ص: 70.

[3]– بدر: مغول إيران، ص: 12–13.

Howorth: history of mangols, P: 260-286.

[4]– رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية م3، ص: 673.

Andrew, J: The mongol world empire 1206 – 1370, P: 558.

المماليك واستعادة القدس منهم، وتقديم ثلاثين ألف فارس في حملة مشتركة ضد دولة المماليك كان من المقرر أن تكون سنة 689هـ/1290م، وحدث هذ التعاون بإرسال الفرنج لمئات الجنود إلى بغداد للقيام بالهجوم المشترك ضد المماليك، وبالمقابل وعد أرغون الغرب الأوروبي بتوفير المؤن والخيول، وضمن لهم المساعدة من أرمينية وجورجيا [1].

وعرض أرغون عام 688هـ/1289م على ملك أرغون فيليب الرابع التعاون في الهجوم على المماليك في مصر، ووعده بمنحه دمشق وكثير من الخيول والإمدادات. وفي سنة 689هـ/1289 م أنفذ أرغون رسولًا آخر وهو جنوي يدعى بوسكارد كان قد أقام طويلًا في بلاد المغول و زودَّه برسائل إلى البابا وملكي فرنسا وإنكلترا . وقد أعلن في رسالته إلى ملك فرنسا باسم الخان الأعظم قوبلاي، أنه بعون الله سوف يصل إلى دمشق في فصل الربيع من عام 691–692هـ/1291م–1292م، فإذا أرسل الملك قوات إضافية استولى غازان على القدس وجعلها ملكًا لفرنسا. كما أرسل رسالة مشابهة إلى ملك انكلترا الذي أحاله على البابا، واقترح أن تجتمع القوات الصليبية والمغولية تمهيدًا للإطباق على المماليك[2].

رابعًا: التحالف المغولي الفرنجي في عهد الناصر محمد بن قلاوون (حكم ثلاث مرات: 693–694هـ/1293–1294م–698–708هـ/1299–1309م–709–741هـ/1310–1340م):

عاصر الناصر محمد بن قلاوون إيلخانين من إيلخانات المغول هما: غازان وأولجايتو، وظهر التحالف المغولي الفرنجي في عهديهما جليًا.

1_ التحالف المغولي الفرنجي في عهد غازان:

كانت سيطرة غازان على دمشق سنة 699هـ/1299م مصدر فرح في أوروبة، فقد قُدمت التهاني والتبريكات له، وعدوا انتصارات غازان تلك بمنزلة الانتقام والتعويض عن انكساراتهم التي تلقوها هناك، فشجعوه على السيطرة على كامل بلاد الشام ومصر من المماليك. بل أرسل ملك أرغون جيمس الثاني رسالة تهنئة لغازان، ووعده بأن يساعده عسكريًا مشترطًا عليه أن يضمن له حرية الحج إلى القدس[3].

---

[1]– رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص: 673 – 679؛ هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 122–128.
Andrew, J: The mongol world empire 1206–1370, P: 559-561; Spuler, B: history of mangols, London, 1972, P: 142.

[2]– رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية، م3، ص: 675. بدر: مغول إيران، ص: 12– 13.
Howorth: history of mangols, P: 260-286.

[3]– القزاز، محمد صالح: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، النجف، مطبعة القضاء، ص: 437؛ إقبال: تاريخ المغول، ص: 287.

وبدوره أرسل غازان سفارة سنة 700هـ/1300م إلى ملك قبرص ثم إلى البابا بونيفاس الثامن بخصوص التعاون المشترك ضد دولة المماليك[1].

وبعد انسحاب غازان من بلاد الشام، كتب سنة 700 هـ/1300م إلى البابا وأوروبة يثيرهم ضد دولة المماليك، ومما قاله لهم: (إن حرب المماليك هي هدفنا الوحيد)[2].

وفي صيف 700هـ/1300م وبعد أن سيطر غازان على معظم بلاد الشام أرسل سفارة إلى روما عرض فيها التحالف، فسارع البابا بونيفاس الثامن بإرسال دعوات إلى الأوروبيين الموجودين في الشرق والغرب كلّهم بالتوجه إلى الأماكن المقدسة[3].

فأرسل جيمس الثاني ملك أراغون رسالة إلى غازان عرض فيها تزويده بالمؤن والمتطوعة والخيل والسفن، مقابل إعطائه خُمس الأراضي المقدسة التي استولى عليها غازان في ذلك الوقت، وما سيسيطر عليه مستقبلًا، والسماح لرعايا جيمس بزيارة الأماكن المقدسة دون دفع أي ضرائب ورسوم[4].

وفي محاولته الثانية للسيطرة على دمشق أظهر غازان سنة 701هـ/1302م المكيدة حين راسل المماليك في الوقت الذي كان يُراسل فيه الغرب لتحقيق تحالف ضد دولة المماليك، فأرسل سفارة على رأسها بوسكاريللو، لكن المشاكل الأوروبية الداخلية حالت دون تعاون آنذاك الطرفين[5].

ولا بدَّ من الإشارة إلى أنه وبعد دخول غازان الأول إلى دمشق أسرع الأرمن في قيليقيا والغرب الأوربي إلى إيفاد رسلهم إلى تبريز عاصمة الخانات المغول، مهنئين بالنصر، وقالوا من خلال سفرائهم أنهم مصممون على مساعدة غازان في هذه المرحلة الحرجة، آملين إخراج بلاد الشام ومصر من دائرة نفوذ المماليك وغيرهم من أمراء المسلمين.

والراجح أن غازان كان مستعدًا لأن يتنازل للفرنجة عن بعض الأراضي التي سيستولي عليها في فلسطين.

ولأجل التحالف أرسل سفراءه إلى إنكلترا وفرنسا من أجل تكوين حلف مغولي فرنجي جديد، وجاء المبشِّر الإسباني الكبير ريمون للشرق قاصدًا ديار غازان.

---

[1]- Andrew: The mongol world empire 1206–1370, P: 561.

[2]- Andrew: The mongol world empire 1206 – 1370, P: 562.

[3]- هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 133-134.

[4]- Howorth: History of the Mongols, Part 3، P: 488.

[5]- هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 136.

ومن جهة ثانية كان عام 699هـ/1291م تاريخ سقوط عكا نقطة تحول أيضًا في العلاقات المملوكية الإيلخانية، فقد بدأ منذ هذا التاريخ تحول مغول فارس إلى الإسلام، وحتى أُعلن الإسلام دينًا رسميًا للدولة 695هـ/1295م. إلَّا أنَّ التوتر في العلاقات والعداء بين الطرفين لم ينته بصورة مباشرة وسريعة، وكان للعامل الأوربي دور في استمراره إلى أن عُقِدَ الصلح بين الطرفين سنة 720هـ/1320م. سياسة غازان الخان المسلم ظلت تثير كثيرًا من علامات الاستفهام، فإذا كانت سياسته الداخلية قد اصطبغت بصبغة إسلامية فقد كان من المنتظر أن يبدأ التعاون مع الدولة المملوكية إلا أنَّ ذلك لم يحدث، بل استمر التوتر مع المماليك والتنافس معهم في بسط النفوذ على الشام. وقد قضى غازان مدة طويلة من حكمه في محاربة المماليك على نحو أثار الشكوك نحو دوافع إسلامه، فبدلًا من أن يكون ظهيرًا للمماليك لصد الهجمات الصليبية الجديدة على مصر ذاتها، اتجه للتقارب مع البابوية، كما حاول التحالف مع ملوك أوربا والحصول على مساعدات من ملكي إنجلترا وفرنسا، وأرسل الوقود إلى بلاطهما حتى 702هـ/1302هـ[1].

2_ التحالف المغولي الفرنجي في عهد أولجايتو:

منذ بداية حكمه عرض أولجايتو التحالف مع الغرب حين أرسل سفارة سنة 704 هـ/1304م إلى ملك فرنسا فيليب الرابع وملك إنكلترة إدوارد الثاني، ثم أرسل سنة 705 هـ/1305م سفارة أخرى إلى أوروبة أعرب فيها عن استعداده للتحالف معهم ضد دولة المماليك[2].

وفي سنة 709 هـ/1310م حرَّضت قبرص وأرمينية أولجايتو على مهاجمة دولة المماليك، فأرسل سفارة إلى الغرب تحمل رسائل للبابا كليمنت الخامس وإدوارد الثاني ملك إنكلترة وفيليب الجميل ملك فرنسا، يحرضهم على التحالف معه ضد المماليك[3].

---

[1]– المقريزي: السلوك، م1، ص: 1012؛ قاسم، عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشرق، مصر، القاهرة، 1994م، ص: 178–180.

[2]– هلال: العلاقات بين المغول وأوربا، ص: 138.

Andrew, J: The mongol world empire 1206 – 1370, P: 563.

[3]– إقبال: تاريخ إيران، ص: 485؛ موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: سليم حسن، محمود عابدين، ط1، مطبعة المعارف، مصر، 1924م، ص: 82.

- **الخاتمة:**

هكذا بيَّن البحث ذلك الإصرار المستمر على توثيق العلاقات بين المغول والفرنج والغرب ضد مصر والشام المحكومتين آنذاك من قبل دولة المماليك، ظهر ذلك خلال حكم أربعة من سلاطين المماليك: الظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، والأشرف خليل، والناصر محمد بن قلاوون.

وتجلى ذلك بمراسلات واتفاقات وتفاهمات بين الطرفين، تضمنت بوضوح التقاء المصالح والأهداف، وبيّنت أهمية بلاد الشام ومصر إلى الأطراف كلّها، ممَّا أدى إلى ما يمكن أن نسميه بصراع دولي عليهما.

وحين يكون ملوك أوروبة والبابوات طرفًا رئيسيًا في التحالف مع المغول؛ فهذا يعني أن التنسيق المشترك بين هذه الأطراف مع المغول كان على أعلى المستويات، ولم يكن عابرًا أو وقتيًا، وإنَّما كان يشكل استراتيجية مهمة ومستمرة لهذه الأطراف.

وفي كثير من الأحيان تحققت هذه الاتفاقات عمليًا، أي لم تكن نظرية فحسب، وفي المرات القليلة التي لم تترجم مثل هكذا اتفاقات كانت هناك ظروف منعت من تحققها.

المصادر والمراجع:

المصادر:

1. ابن شداد، عز الدين: تاريخ الملك الظاهر، تحقيق: أحمد حطيط، دار فرانز شتايز بفيسبادن، مركز الطباعة الحديثة، بيروت، 1983م.
2. ابن عبد الظاهر، محي الدين: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تح: عبد العزيز الخويطر، ط1، الرياض، 1976م.
3. ابن علي، شافع الكاتب: الفضل المأثور في سيرة الملك المنصور، تح: عمر عبد السلام التدمري، المكتبة العصرية ، صيدا، 1998م.
4. جيرارد أوف مونتريل، الفارس الداوي: أعمال القبارصة، ترجمة: سهيل زكار، دار التكوين، دمشق، 2008م.
5. العمري، أحمد بن يحيى: التعريف بالمصطلح الشريف، تح: محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1988م.
6. القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندى: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، ط1، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922م.
7. المقريزي، أحمد بن علي: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك، تح: محمد مصطفى زيادة، ط2، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1957م.
8. الهمذاني، رشيد الدين فضل الله: جامع التواريخ في غزو المغول تاريخ الإيلخانيون أبناء هولاكو، ترجمة: فؤاد عبد المعطي الصياد، ومحمد صادق نشأت، القاهرة، الإدارة العامة للثقافة، 1960م.

المراجع:

9. أبو عليان، عزمي محمد: مسيرة الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في عهد المماليك، ط1، دار النفائس، الأردن، 1995م.
10. اسكندر، فايز: مملكة أرمينية الصغرى بين الصليبيين ودولة المماليك الأولى، كلية الآداب، جامعة الاسكندرية، 1980م.
11. إقبال، عباس: تاريخ إيران بعد الإسلام، ترجمة عبد الوهاب علوب، المجمع الثقافي، أبو ظبي، 2000م.
12. الحجي، حياة ناصر: دولة المماليك ودولة مغول القفجاق، حوليات كلية الآداب، جامعة الكويت، الحولية الثانية، 1981م.
13. الصياد، فؤاد: المغول في التاريخ، دار النهضة العربية، بيروت، 1980م.

14. بدر، مصطفى: مغول إيران بين المسيحية والإسلام، دار الفكر العربي.
15. حومد، أحمد: تاريخ الجهاد لطرد الغزاة الصليبيين، ط1، 2002م.
16. دي كانسي، جوزيف: أخبارًا من سورية، ترجمة: سهيل زكار، رسالة منشورة ضمن كتابه العالم الإسلامي في العصر المغولي والأحلاف الصليبية المغولية، وهو مطبوع ولكنه لم يُنشر بعد.
17. رنسيمان، ستيفن: تاريخ الحروب الصليبية، تر: السيد الباز العريني، دار الثقافة، بيروت، 1968م.
18. سميث، جوناثان رايلي: الإسبتارية فرسان القدّيس يوحنا في بيت المقدس وقبرص، تر: صبحي الجابي، دمشق، مركز الدراسات العسكرية، 1984م.
19. شبولر، برتولد: العالم الإسلامي في العصر المغولي، تر: سهيل زكار، وخالد عيسى، ط1، دار حسان، دمشق، 1982م.
20. عاشور، سعيد: الحركة الصليبية صفحة مشرفة في تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، ط1، مكتبة الأنجلو المصرية، 1963م.
21. عاشور، سعيد: الظاهر بيبرس، مصر، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.
22. العريني، السيد الباز: المغول، دار النهضة العربية، بيروت، 1981م.
23. العلبي، أكرم: دمشق بين عصر المماليك والعثمانيين، الشركة المتحدة للتوزيع، دمشق، 1982م.
24. عودات، أحمد: بيضون؛ شحادة، الناطور: تاريخ المغول والمماليك، إربد، دار الكندي، 1990م.
25. قاسم، عبده قاسم: عصر سلاطين المماليك، ط1، دار الشرق، مصر القاهرة، 1994م.
26. القزاز، محمد صالح: الحياة السياسية في العراق في عهد السيطرة المغولية، النجف، مطبعة القضاء.
27. المحمد، أنس: مشرق البحر المتوسط في عصر المماليك، أطروحة دكتوراه، جامعة دمشق، 2014م.
28. موير، وليم: تاريخ دولة المماليك في مصر، تر: سليم حسن، ومحمود عابدين، ط1، مطبعة المعارف، مصر، 1924م.
29. هلال، عادل: العلاقات بين المغول وأوربا، دار عين، مصر، 1997م.

المراجع الأجنبية:

1. Andrew, J: The Mongol World Empire 1206–1370, London, Variorum reprints,
2. Denise Aigle. E: Hülegü, and Abaqa: "Mongol Overtures or Christian Ventriloquism?" BRILL, Inner Asia, Vol (7), No (2), 2005.
3. Paviot, J: England and the Mongols (c. 1260-1330), Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society, Third Series, Vol (10), No(3), 2000.
4. Stewart, A: The Assassination of King Hetum II, Cambridge University Press on behalf of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland, Journal of the Royal Asiatic Society.